يوغوسلافيا
(١)

من ألبانيا عبرت الحدود إلى يوغوسلافيا، كنت متحمسا جدًّا لزيارة يوغوسلافيا ومتابعة تجربتها الفريدة عن قرب، كذلك كنت مهتمًّا بأن أدخل إليها عن طريق الحدود البرية، فقد كانت كل رحلاتى السابقة الإثنتى عشرة عن طريق الجو أو البحر، وهذه أول مرة أقوم بزيارة دولة عن طريق حدودها البرية مع دولة أخرى.. من مدينة شكودرا شمال ألبانيا قطعت السيارة خمسة وسبعين كيلو متراً فى خلال ساعة واحدة، وعلى الحدود ودعنى مرافقى الألبانى وداعاً حارًّا وعبرت البوابة الألبانية وعليها علم ألبانيا ذو النسر الأسود ومشيت حوالى عشرين متراً هى المنطقة الفاصلة بين البلدين، ثم دخلت بوابة يوغوسلافيا وهى مدخل جمهورية مونت نجرو أولى جمهوريات يوغوسلافيا المتاخمة

لألبانيا واستقبلتنى مرافقة من هناك بابتسامة عريضة وكلمات حلوة، ثم طلب منى شرطى الحدود فتح حقائبى وتفريغ ما بها أمامه للتفتيش.. وقلت أنا مستعد لفتح حقائبى فعلاً، ولكن أعتقد أنه من الصعب أن أفرغ كل ما فيها أمامك، لأنها ملابسى وكتبى.. وعلى العموم تستطيع أن تضع يدك داخل الحقيبة وتقلب فيها كما تشاء، فهذا حقك.. ولم يقتنع الشرطى بذلك ودارت مناقشة طويلة وحادة بيننا، وطلبت من المرافقة أن تشرح له أننى ضيف على الحكومة اليوغوسلافية بدعوة كريمة من اتحاد الصحفيين وإنه لا يصح أن يعاملنى بهذه الطريقة، وحاولتْ هى من ناحيتها أن تشرح له الحكاية وتخفف من حدة الموقف دون جدوى، وأخيرًا اقتنع أن يدخل يده ليقلب فى بعض الحقائب بعد أن اضطررت إلى تفريغ البعض الآخر كما أراد، قالت مرافقتى: أرجو أن لا تغضب فهذه هى مهمته وبخاصة وإنك قادم من ألبانيا.. كما أن رجال الشرطة عندنا لا يحبون أن يمدوا أيديهم داخل حقائب الزوار تأدبًا منهم واحترامًا لممتلكات الزوار الخاصة.

. اهتم رجل الشرطة اليوغوسلافى بالتفتيش عن الكتب، وعندما وقع فى يده كتاب باللغة الألبانية ملأت الدهشة وجهه واضطرب وتصفح الكتاب ثم أخذه وتناقش مع زميل له وهو فى حالة ارتباك.. ثم سألنى عن محتوى الكتاب ولماذا أحضرته معى؟

قلت هذا كتاب عن الفولكلور الألبانى وقد أهداه إلى مدير

معهد الفولكلور هناك لاهتمامى بهذا الفن الشعبى الرائع، ولأن اسمى مكتوب فيه كأحد الأجانب المهتمين به.. وتحدث مع المرافقة بلغتها ثم تحدث تليفونيًّا مع أحد المسئولين وأخيراً ابتسم لى واعتذر عما حدث، وساعدتنى المرافقة السيدة «دانا» فى حمل الحقائب ونقلها إلى السيارة الخاصة التى ستذهب بنا إلى الفندق.

قلت لمرافقتى ما هى حكاية ألبانيا معكم؟

قالت.. أنت تعلم أن هناك جالية ألبانية تعيش عندنا فى يوغوسلافيا ونحن نخاف من المنشورات والكتب والصحف والمجلات التى تبث فى الجالية روح الثورة والتمرد على النظام ومحاولة الانفصال، ولا شك أنك سمعت عن أحداث «كوسوفا» الأخيرة وهو الإقليم الذى تعيش فيه أكبر جالية فى يوغوسلافيا وهى الجالية الألبانية، وعلى العموم ستعرف الكثير عن هذه المشكلة خلال زيارتك، ثم ابتسمت دانا.. قائلة.. المهم حمد الله بالسلامة وأهلا بك فى يوغوسلافيا أرض السلام والحرية، ونحن نعتبر أنفسنا محظوظين بالنسبة للدول الاشتراكية فتجربتنا تجربة خاصة تنبع من داخلنا، وأهم ما نملكه هو حريتنا التى نعتز بها.

وصلنا إلى الفندق الذى سأنزل فيه وهو من أكبر فنادق جمهورية مونت نجرو واسمه (سارنا جورا) وللوهلة الأولى أحسست بالحركة والحيوية فى هذا المجتمع الجديد المتفتح الحر،

الناس تملأ الشوارع، الفندق مشغول ربما لعدة أسابيع، وجوه المواطنين تنم عن حب الحياة والحركة السريعة التى تتفق وطبيعة النصف الأخير من قرننا العشرين.

وتركتنى دانا المهذبة لأستريح على أن نتقابل مساء فى فيلتها فى الريف حتى تعرفنى وتقدم لى زوجها السيد «فيليب جانكوفيك» الفنان الأول فى جمهورية «مونت نجرو» ومعناها الجبل الأسود ونتفق على برنامج الزيارة.

(٢)

فى المساء التقينا وكان لقاء حافلا، وسرعان ما تصادقت على فنان مونت نجرو الأول «فيليب جانكوفيك» وهو فنان رقيق، ورسام بارع، وعاشق للموسيقى الشرقية، وقد أسعدنى بأن أدار لى أكثر من اسطوانة موسيقى شرقية ومصرية كما طلب منى تسجيل نسخة من الأشرطة الموسيقية التى كانت معى، وكان من الطبيعى أن يكون حديثنا عن عمله وهو الفن التشكيلى، وقد شاهدت معظم لوحاته التى تجمع بين الواقعية والمدرسة السيريالية أى فوق الواقعية وسألته:

أى المدرستين تفضل؟

الحقيقة أننى كأى فنان بدأت بالمدرسة الواقعية ورسمت

«البورترية» ثم تدرجت لأرسم لوحات سيريالية، وعندى أن الفنان يستطيع أن يعبر عن المدرستين لأن الفنان يحب التغيير ويفضل أن تكون له أكثر من طريقة لتفريغ شحنة الفن والمشاعر المتباينة التى تختلج بها نفسه.

وابتسم الفنان وهو يقول: إننا هنا فى يوغوسلافيا نتمتع بالحرية الكاملة فى التعبير، وربما لا تجد دولة اشتراكية تعرف المدرسة السيريالية فى الفن، ولكننا هنا نعرف ونمارس كل المدارس فى التعبير ولا رقيب علينا إلا الضمير.

وسألته ما هى اللوحة التى تعتز بها؟

لا شك أن كل لوحة فى وقتها تمثل اعتزازًا معيناً وفى معرضى الأخير عرضت ثلاثين لوحة تجمع بين المدارس المختلفة وكلها أعتز بها، لكن هناك لوحة أعتز بها اعتزازًا خاصًّا وهى التى اقتناها الزعيم الراحل تيتو وهذا شرف عظيم لى بالطبع.

واشتركت السيدة دانا فى المناقشة، وبعد أن انتهينا من حديث الفن والاستماع إلى الموسيقى المختلفة وبخاصة الشرقية التى يفضلها صاحبنا الفنان الرقيق «فيليب جانكوفيك» بدأت دانا تمارس عملها كمرافقة لى فى خلال زيارتى إلى جمهوريتها، وسألتنى عن الأماكن التى أفضل زيارتها والمعالم التى أود مشاهدتها؟.

قلت: إننى دائمًا أحب التعرف إلى الشارع فهو نبض أى دولة، وهو المعبر الحقيقى عن الرجل العادى، عن آماله وأحلامه وآلامه أيضًا.

قالت: إذن لنجعل برنامج الغد هو الشارع نهارًا ثم الشارع ليلًا.

على الرغم من أن جمهورية مونت نجرو هى أصغر جمهوريات يوغوسلافيا الست ولا يزيد عدد سكانها على خمسة وثمانين ألف نسمة إلا أن شوارعها تتسم بالحركة والنشاط وشبابها يميل إلى المرح والتفاؤل، وتستطيع أن تجد أى سلعة تحتاج إليها من أى بلد فى العالم، فهنا يوجد انفتاح غير عادى، أو على الأقل لا تجده فى أى دولة اشتراكية أخرى، انفتاح ليس فى مجال التجارة وحسب، بل فى كل المجالات، فقد شاهدت الانفتاح الفنى ووجود كل المدارس الفنية التشكيلية حتى السيريالية، وهذا انفتاح تجارى يملأ الشارع، بالإضافة لوجود أحدث الأزياء والموضات التى ترتديها المرأة اليوغوسلافية الجميلة، هذا بالإضافة أيضًا للانفتاح الفكرى على العالم ووجود الكتب الأجنبية، وقد سعدت عندما تحدث إلى أحد المكفوفين عن الدكتور طه حسين وكيف أنه قرأ له بعض مؤلفاته التى ترجمت إلى اللغة اليوغوسلافية.

والشعب اليوغوسلافى محب من قلبه للشعب المصرى وبينما كنت أبتاع بعض الشيكولاتة لابنتى وابنى من أحد المتاجر

لحظت فتاة بأنى لا أستطيع التفاهم مع البائع فتدخلت على الفور وقامت بالترجمة بينى وبين البائع باللغة الإنجليزية فأخرجت لها ما فى جيبى من عملة يوغوسلافية لكنها لم تجدها كافية فأخرجت من جيبها بعض القروش لتكمل الحساب ولما أعطيتها دينارا لتفكه وتأخذ ما دفعته ابتسمت قائلة هذا شىء بسيط وأنتم المصريون أصدقاء لنا، لا تشغل بالك بهذه النقود القليلة.

والانفتاح على العالم يشمل برامج وأفلاما سينمائية وتليفزيونية من كل بلاد العالم يعرضها التليفزيون اليوغوسلافى، وفى جمهورية مونت نجرو فقط يرى المواطنون برنامجين إيطاليين بالإضافة إلى ٢٥ فى المائة من البرامج والأفلام المقدمة مستوردة من مختلف أقطار العالم أمريكا، هولندا، إنجلترا، فرنسا، ألمانيا، الاتحاد السوفيتى، بولندا، مصر وغيرها، ويتعاون التليفزيون هناك مع مائة دولة فى هذا المجال، ولا شك أن هذا التعاون يرقى بالمواطن إلى مستوى العالمية ليعرف مشاكل العالم، وفنونه وميزاته بالإضافة إلى عالمه الذى يعيش فيه فالعالم كما قال شاعر ألمانيا الأشهر «جيته» قريتى.

والشارع الرئيسى فى جمهورية مونت نجرو يختلف فى أثناء النهار عنه فى الليل، فبينما السيارات والأتوبيسات تمر به نهارًا إلا أنها تتوقف ليلا لإعطاء فرصة للمواطنين حتى يبتاعوا ما يريدون بعيدين عن زحام السيارات أو الخوف على أطفالهم

منها وذلك لأن المرور يمنع بمساء فى الشارع وينطلق الأطفال وسطه دون خوف، بل وتضع بعض الكافتيريات مقاعد وسط الشارع للراحة وتناول المرطبات أو الساندوتش.

وهذه التجربة، تجربة منع مرور السيارات من بعض الشوارع الرئيسية التجارية فترة معينة فى أثناء النهار أو الليل معروفة فى أوربا، وهى تريح المواطنين العاديين وتحافظ على سلامتهم وسلامة أطفالهم، وحبذا لو نفذت فى مصر فى شوارع وسط البلد خصوصا، فهذا سوف يحقق نتائج طيبة للجميع.

وفى نهاية اليوم الذى خصصناه للشارع وتعرفت فيه على جمال الطبيعة والنظافة والنظام، دعتنى دانا فى اليوم التالى وهو يوم العطلة الأسبوعية يوم الأحد إلى قضاء يوم جميل مع أسرتى الصغيرة فى أحد مصايف «مونت نجرو» جمهورية الجبل الأسود الرائعة ومما شجعنى على قبول الدعوة أنها كانت دعوة عائلية وطلبت أن يكون اللقاء فى السادسة صباحًا حتى نستطيع التمتع باليوم كله من أوله إلى آخره وافترقنا على أمل اللقاء.

(٣)

قبل الموعد بربع ساعة، فى صباح يوم الأحد كانت دانا موجودة بالفندق تبحث عنى، وقد أعدت كل شىء لقضاء يوم

سعيد، وقابلتنى بابتسامتها العريضة ووجهها المشرق قائلة: إننا محظوظون اليوم جدًا فالطقس جميل والشمس مشرقة إنها فرصة نادرة لنسبح فى البحر ونجلس فى استرخاء على الشاطئ، وركبنا السيارة مع أسرتى وأسرة دانا إلى مدينة بودفا السياحية.. جرت بنا السيارة حوالى ساعة ونصف ساعة على طرق ممهدة ناعمة صاعدة هابطة بين الجبال المرتفعة العالية إلى أكثر من ألفى متر ومع ذلك لم نشعر بصعود وهبوط السيارة ولا بتعارج الطريق الملتوى بين الجبال، فالجبال كلها خضراء جميلة والسائق يعرفها جيدًا، قطعت السيارة حوالى ٦٥ كيلو متر حتى وصلنا إلى بودفا، المدينة السياحية الجميلة التى تقع على البحر الأدرياتيكى الشديد الزرقة والمتعدد الشواطئ والتى تمتد عليها الكافتيريات والمطاعم المختلفة الحجم والطراز متناثرة فى كل مكان وبخاصة مطاعم الأسماك التى يفضلها زوار الشواطئ، وبعد جولة فى المدينة دعتنا دانا لزيارة القرية السياحية «سان ستيفانو» ذات الطابع الخاص والتى تقع فى وسط البحر مشكلة شبه جزيرة، دخلنا القرية وهى بناء واحد متكامل يشمل حارات صغيرة مرتفعة ومنخفضة وبه أربعمائة شقة وبعض حجرات صغيرة، والقرية تخضع لإدارة واحدة، وأنت تستطيع تأجير شقة فى هذه القرية، والشقة تتكون من حجرتين أو ثلاث أو أربع مع الحمام والمطبخ، والأضواء خافتة مباشرة وغير مباشرة، والشرفات تطل على الأدرياتيكى.. لا شك أن الشقة رائعة متكاملة لا ينقصها شىء، الموقع الممتاز، والهواء

المنعش والشمس المشرقة التى تدخلها من كل جانب، وقد أعد المطبخ بكل أدواته حتى يمكن لأسرتك أن تستخدمه وتطهى طعامك حتى لا تزيد مصروفاتك الكثيرة فى هذه القرية، وهى لا شك منطقة استجمام أكثر من ممتازة، وبعد أن شاهدنا الشقة وتفقدناها سألت مشرف العلاقات العامة فى القرية عن قيمة إيجار الشقة الواحدة الصغيرة أعنى حجرتين وحمام ومطبخ فقط فى الليلة الواحدة؟

فقال: خمسمائة دولار. (هذا اللقاء كان فى عام ١٩٨١ ولك أن تتصور الأسعار الآن)!

قلت: أنا أسأل عن الثمن فى الليلة الواحدة لا فى الأسبوع أو الشهر؟

قال الرجل مبتسمًا: نعم خمسمائة دولار فى الليلة الواحدة مع الإفطار أيضًا.

قلت: يا بلاش وكمان مع الإفطار رخيصة جدًّا... وخانتنى انفعالاتى فارتسمت علامات الدهشة على وجهى ولاحظ الرجل فأسرع قائلا: على العموم هناك حجرات صغيرة للشباب وهى أرخص بالطبع وتصلح لعروسين أو صديقين وثمنها فى الليلة الواحدة دون وجبة الإفطار أربعين دولارًا فقط.. مدهش.

وقلت لزوجتى التى نظرت إلى مبتسمة: لا تندهشى نحن أغنى

من كل هؤلاء لأننا نملك الستر وهو يساوى ملايين الدولارات، لا مجرد خمسمائة أو ألف فقط.

وأخذ مسئول العلاقات العامة بالقرية يشرح لنا تاريخها وكيف أنها كانت مجرد مساكن للعامة فقط ورأت الدولة أنه يمكن استغلالها سياحيًا استغلالا يدر عليها ملايين الدولارات، فأوجدت مساكن لسكان القرية ونقلتهم إليها واهتمت بعمل لمسات جميلة مشجعة للسياح على الاسترخاء التام وقضاء الصيف والاستجمام، وأطلقت على القرية اسم سان استيفانو نسبة إلى اسم الكنيسة التى كانت تقع فىَ قمة الجبل.. وأضاف الرجل أن القرية الآن ملتقى أصحاب الملايين ونجوم السينما والملوك والرؤساء ورجال الأعمال، وأخذ يعدد لنا أسماء لامعة نعرفها وأخرى لا نعرفها ممن ابتسم لهم الحظ وقضوا بعض لياليهم فيها، وأكد سيادته أنه من الصعب العصور على شقة أو حجرة للإيجار فى القرية خصوصاً فى فترة الصيف لكثرة المقبلين عليها، وذكرنى حديث الرجل بأزمة الإسكان فى مصر مع الفارق.

وأدهشنى اهتمام الدولة وهى دولة اشتراكية شيوعية بإعداد مصايف خاصة لكبار رجال الأعمال الرأسماليين لينفقوا فيها ملايينهم.. وهكذا تستفيد الاشتراكية من الرأسمالية، وهذا يدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يستغنى عن أخيه الإنسان مهما اختلفت المذاهب والمدارس والفلسفات.

تركنا القرية السياحية وقالت دانا: هيا بنا نسبح على هذا الشاطئ الجميل، وكان الشاطئ جميلا حقًا، المياه صافية شديدة الزرقة، وتعجبت لأنى لم أجد رملا على الشاطئ بل زلط زلط من كل الأحجام والألوان والأنواع، سبحان الله حتى الزلط جميل وناعم ومختلف الأشكال لدرجة أنك تظن وكأن أحد الفنانين التشكيليين قد داعبه بأنامله حتى أصبح على هذه الصورة الجميلة الملونة، وسبحنا فى مياه الادرياتيكى الرائعة الصافية الجذابة إلا أن الزلط شدنى أكثر فأخذت أسبح قليلا وأجلس مسترخيا على الزلط كثيرًا، بل اهتممت أخيرًا بجمع بعض حبات الزلط حتى تكون ذكرى فى بيتى من هذه الرحلة... ونظرت إلى زوجتى نظرة كلها استنكار وتعجب، ولم أهتم.. مجنون مجنون، أليس الفنون جنون أو العكس، أفهمها كما يعجبك. وبينما كنت أجلس على الشاطئ إذا بابنتى نورا تهرول إلى.. بابا... بابا إلحق.. تعالى شوف البنات عاملين ايه.

قلت: إيه الحكاية؟

قالت: البنات نايمين على الشاطئ شبه عرايا صدورهن عارية تمامًا.. قلة أدب.

قلت لها.. أنت عارفة أننا فى اوربا.. مجتمع آخر مختلف عن مجتمعنا.. القيم والأخلاق وحتى العيب يفهمونه بطريقة اخرى.. ولابد أن نحترم عادات المجتمع الذى نحن فيه الآن حتى

لو اختلفت مع قيمنا.. ولم يرغمنا أحد على أن نعمل مثلهم.

أما ابنى ناجى فكان سعيدًا بالمنظر الذى رآه لأنه كان غريبًا عنه، ومن الطريف أن المناقشة احتدت بين الاثنين بين معارض وموافق.

وعندما سمعت دانا الحديث وترجمت لها ما قالته ابنتى ابتسمت قائلة.. هناك شواطئ أخرى كثيرة ولكن لها شروط فى الدخول.

سألت وما هى الشروط؟

أن تكون عاريًا تمامًا، فهذه شواطئ خاصة للعراة.

قلت أرجو ألا تقولى هذا لابنتى حتى لا تطلب منى مغادرة بلدكم فورًا.

(٤)

عدنا إلى الفندق بعد قضاء يوم سعيد فى أحضان الطبيعة الرائعة الجمال الهادئة الناعسة، وبعد أن سبحنا وأكلنا وشربنا واسترخينا وتمتعنا بالطبيعة الحية المختلفة الألوان التى عشقها فيلسوف فرنسا جان جاك روسو وطالب بالعودة إليها.

فى الفندق كانت هناك رسالة تنتظرنا، قرأتها «دانا» وقالت لنا.. للأسف لابد أن تغادروا مونتجرو غدًا مبكرين إلى بلجراد فسوف ينتظرونكم فى المطار صباحًا.

وفى اليوم التالى كان كل شىء معدًّا جاهزًا لرحيلنا إلى العاصمة بفضل السيدة (دانا) ونشاطها الواضح وصبرها على العمل ليل نهار، إنها تحب عملها جدًّا وهى صورة مشرقة للمرأة اليوغوسلافية المتحضرة التى تتفانى فى عملها من أجل سمعة بلادها.. وجاءت فى الساعة الخامسة صباحًا بدراجتها الخاصة لتودعنا وتطمئن على راحتنا، وكان وداعًا حارا.

فى المطار ساعدنا سائق السيارة التى أقلتنا من الفندق فى حمل الحقائب، وإحضار تذاكر الطائرة ثم ودعنا بالأحضان والقبلات مما أزعج ابنتى نورا وابنى ناجى واعترضا قائلين لى..

كيف تترك السائق يعانق والدتنا ويقبلها؟

قلت هو لم يقل لى إنه سيفعل ذلك، ولكنى فوجئت مثلكما بما فعل.. وعلى العموم هل شعرتم أو أحسستم أنه غير مهذب؟

قالا.. لا هو مهذب جدًّا، وقد عرفناه جيدًا عندما قضينا معه يوم أمس على البلاج فى الأدرياتيك.

إذن لماذا تغضبان؟... هذه عاداتهم ونحن مجرد ضيوف.

إستغرقت رحلتنا بالطائرة من تيتوجراد عاصمة جمهورية الجبل الأسود.. (مونتنجرو) إلى بلجراد العاصمة حوالى الساعة، استطعت خلالها أن أتعرف على ملامح يوغوسلافيا من كتيب صغير معى.

تتكون يوغوسلافيا من ست جمهوريات اشتراكية هى البوسنة والهرسك، وعاصمتها سراييفو، وجمهورية الجبل الأسود (مونتجرو) وعاصمتها تيتوجراد، وجمهورية كرواتيا وعاصمتها زغرب، ومكدونيا وعاصمتها سكوبيا، وسلوفينيا وعاصمتها لوبليانا، وصربيا وعاصمتها بلجراد، ومن إقليمين اشتراكيين متمتعين بالحكم الذاتى فى إطار جمهورية صربيا هما كوسوفو وعاصمتها برشتينا، وفويفودينا والعاصمة نوفى ساد.

ويوغوسلافيا أسرة اتحادية اشتراكية تقوم على أساس التسيير الذاتى، وهذه الأسرة لها أصول مختلفة فهى تجمع بين شعوب ألبانيا والمجر وبلغاريا ورومانيا وإيطاليا وتركيا، واستطاعت هذه الشعوب أن تتآلف فيما بينها لتكون يوغوسلافيا الدولة ذات السياسة الاشتراكية الخاصة، والتجربة الذاتية الفريدة التى تجمع بين مميزات النظم المختلفة فى العالم.. وتوجد ثلاث لغات رسمية هى صرب كرويشن، وسلوفينيان، والماسيدونيان، كما توجد الديانتان الإسلامية والمسيحية بمذهبيها الأرثوذكسى والكاثوليكى، وهناك بالطبع اللادينيون.. ومن الطريف أن هناك طريقتين للكتابة، هناك الحروف اليوغوسلافية وهى قريبة من الكتابة اليونانية، وهناك أيضًا الحروف اللاتينية التى تكتب بها أوربا، وعلى الرغم من وجود هذه التناقضات العديدة إلا أن الشعب اليوغوسلافى عاش ويعيش فى سلام دائم وعمل جاد من أجل

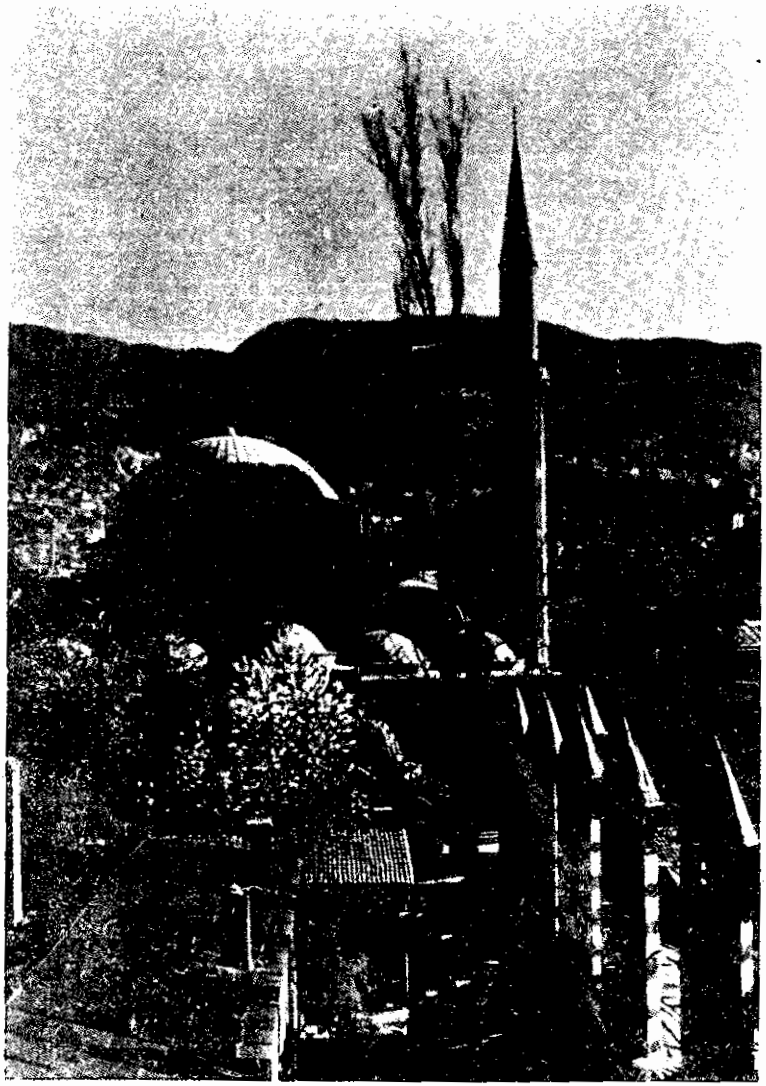

مسجد ومدرسة من معالم «سرابيڤو» عاصمة جمهورية
البوسنة والهرسك إحدى جمهوريات يوغوسلافيا الست

المستقبل، ويبلغ تعداده الآن حوالى ٢٢ مليون نسمة.

وصلت الطائرة إلى مطار بلجراد عاصمة جمهورية صربيا وعاصمة الجمهوريات الست أيضًا، وسرعان ما تركنا الطائرة واستلمنا حقائبنا وانطلقنا بسيارة المرافق الخاص الذى استقبلنا وكأنه يعرفنا جيدًا، وفى الطريق إلى الفندق بهرتنى المبانى الكثيرة العالية البيضاء، فكل شىء هنا أبيض ناصع البياض، وحتى اسم بلجراد - بيوجراد كما يقولون بلغتهم - معناه المدينة البيضاء وقد سميت بهذا الاسم منذ عام ٨٧٨ وهى بيضاء فعلا وبخاصة عندما تسطع الشمس وتنعكس على مبانيها وحدائقها الغناء وشوارعها الفسيحة النظيفة، وأخذ مرافقنا يشرح لنا معالم العاصمة، وفى منطقة هادئة أشار إلى قصر صغير قائلا.. هذا هو البيت الأبيض الذى كان الزعيم الراحل تيتو يستقبل فيه ضيوفه، وهو غير بيته الخاص، قلت مبتسمًا أنتم تملكون بيتًا أبيض كما هنو الحالى فى أمريكا، فرد ضاحكًا.. بالضبط وهل يوجد فرق بيننا؟ ها... ها.. ها.

وتتمتع بلجراد بموقع ممتاز إذ هى تطل على ضفاف نهرى السافا والدانوب وتزخر بحياة ثقافية وفنية واجتماعية غنية، وفى الجزء القديم منها مجموعة من المتاحف والمؤسسات الثقافية، والشوارع ذات الطابع القديم المحتفظة بتراثها الشعبى ومعالمها التى تعود إلى آلاف السنين.

بعد جولة سريعة فى المدينة البيضاء بلجراد وصلنا إلى فندق (ماجستيك) واسترحنا ثم تناولنا الغداء وودعنا المرافق على وعد بلقاء فى المساء لجولة أخرى ومزيد من المعرفة ببلجراد.

كانت السهرة فى حى (اسكى دار) المعروف باسم اسكدرالله، وهو حى قديم وسط بلجراد يهرع إليه أهل المدينة والسياح للتمتع بعبق التاريخ والحياة الكلاسيكية، والبعد عن مظاهر المدنية الحديثة والعيش ساعة أو ساعتين أو أكثر ببساطة القدماء، الحى يتوسطه شارع طويل يختلف عرضه من منطقة لأخرى وفيه فعلا تحس بالتاريخ وبجانب المقاهى والمطاعم وأكشاك الساندوتش السريع أو شىّ الذرة وصناعة الفيشار توجد المتاجر التى تبيع التماثيل الأثرية والهدايا التذكارية، كما يوجد أماكن خاصة ومسرح لهواة الموسيقى، وتأتى فرق خاصة للعزف إلى وقت متأخر من الليل مرتين كل أسبوع يومى الإثنين والخميس، ليتمتع رواد الحى بالموسيقى الفولكلورية الشعبية بالمجان، وعلى امتداد الشارع والحى تنتشر الأرائك النظيفة ليستريح الناس، وقد احتفظ الحى بكل ملامحه القديمة من أرض وبناء وحتى الإضاءة المباشرة فى وسط الطريق تدل على ذلك، وهناك باعة جائلون يبيعون الفستق والنقل ويرتدون الملابس المزركشة القديمة التى تميز أصل كل منهم قبل أن يصبح مواطناً يوغوسلافيًّا، وطبيعى أن يزدحم الشارع بالناس من كل مكان، من يوغوسلافيا بلدهم ومن كل بلاد العالم

يسمعون الموسيقى ويشاهدون الرقص الشعبى، ويتناولون الأطعمة الشعبية وبخاصة شيش كباب، وحى اسكدرالله يذكرك على الفور بأحيائنا الشعبية فى مصر مثل حى الحسين فى القاهرة، وحى المرسى أبو العباس فى الإسكندرية وغيرها مع شىء من الاهتمام الزائد بالنظافة والسياحة والطابع القديم الذى يتميز به.

وبلجراد (المدينة البيضاء) مدينة قديمة وجديدة أيضاً فتاريخها يعود إلى سبعة آلاف سنة، وقد عانت ما لم تعانه مدينة أخرى من ويلات الحرب والدمار فقد تحطمت خلال تاريخها أربعين مرة، واستطاعت أن تعيش مرتدية أثواباً جديدة من البناء والعمران، وهى تعتز بأنها تعيش منذ ٣٧ سنة وأكثر بلا حرب فى سلام دائم، فى سلام من أهوال الحرب إلا أن الطبيعة لا ترحمها فأحياناً تثور وتعربد وتعلو وتهبط وتدمر كل شىء عن طريق الزلازل والبراكين المخيفة والهزات الأرضية العديدة، وهناك آثار كثيرة للزلازل مازلوا يحتفظون بها حتى الآن فترى حفرة كبيرة فى الأرض قد انقلبت فيها الأشجار والأحجار وأخذت شكلا غير عادى أو بيتاً بلعته الأرض وغير ذلك.

وقد استطاع اليوغوسلاف أن يعيشوا فى سلام مع العالم ولكنهم ما زالوا يحاربون ضد الطبيعة للقضاء على الزلازل والبراكين بقدر الإمكان، وعن طريق الدراسات المختلفة، وتعكس حالة السلام التى يعيشها ويتمتع بها شعب يوغوسلافيا السبب فى

الحب الكبير لزعيمهم الراحل تيتو، ففى كل مكان تجد صورة الزعيم تيتو تتصدر المحتويات فهو الذى جمع شمل كل هذه الجنسيات تحت راية واحدة وطنية، وهو الذى دافع عن بلاده، وحقق لها سياسة مستقلة، وهو بطل الحرب والسلام، كما أنه واحد من الزعماء الذين وضعوا وخططوا لسياسة عدم الانحياز مع الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر والرئيس الهندى جواهر لال نهرو، ولزعامة تيتو الفذة وحبه للسلام وخدمة بلاده فإنهم ما زالوا يحتفظون بصوره وتماثيله وسيرته العطرة لا فى مكاتبهم وبيوتهم وحسب بل فى قلوبهم أيضا، ولا شك أنه أهل لذلك.

(٥)

استطاع الزعيم تيتو بقوة شخصيته وذكائه وحب الجماهير له أن يحافظ على بلاده ويحقق لها الأمن والوحدة والسلام، وبعد رحيله فى شهر مايو سنه ١٩٨٠ تساءل المعلقون هل ستستمر يوغوسلافيا فى سياستها وأمنها وسلامها... أو سيتغير الموقف بعد رحيل القائد والزعيم الذى وحد شعوب بلاده وقومياتها على رغم الاختلافات القومية الأصلية فيما بينها؟.

والواقع أن منطقة البلقان، والتى تشمل ست دول هى اليونان. تركيا. ألبانيا بلغاريا. رومانيا. ويوغوسلافيا تشبه - كما يقول

المحللون السياسيون - برميل البارود الذى يمكن أن ينفجر فى أية لحظة، فالخلافات حول الأرض والحدود قائمة دائماً بينهم، كما أن الاختلافات الأيديولوجية تساعد على وجود النزاع من حين إلى آخر، وعلى سبيل المثال فإن اليونان تقول إن جزءاً من أرضها الآن تحت سيطرة ألبانيا، وإن هناك بلاداً بأكملها تحت الحكم الألبانى وإنها مازالت تحمل أسماءاً يونانية مثل «جيروكاسترا» وهى المدينة التى ولد فيها الرئيس الراحل أنور خوجا رئيس ألبانيا، ويقول اليونانيون إن أصل الأسم فى اللغة اليونانية هو «أرجيروكاسترا» ومعناه القصر الفضى، ومدينة ساراندا الألبانية الآن يقولون عنها أيضا إنها يونانية ومعنى اسمها الأربعون المقدسة، ويقصد بها صوم عيد القيامة عند المسيحيين، المهم أن هذا مثل للخلافات الموجودة بين اليونان وألبانيا، وهناك خلاف على الأرض أيضاً بين يوغوسلافيا وبلغاريا وخلاف آخر بين اليونان وتركيا وهكذا.. غير أن أحدث هذه الخلافات التى ظهرت واضحة جلية بعد رحيل تيتو هو الخلاف والنزاع بين يوغوسلافيا وألبانيا على إقليم «كوسوفا» الذى يقع تحت السيادة اليوغوسلافية وتبلغ نسبة العنصر الألبانى فيه تسعين فى المائة تقريباً، وبين الحين والآخر تُطير وكالات الأنباء العالمية أنباء مختلفة عن هذا الإقليم تنم عن اضطرابات ومظاهرات والقبض على بعض الشباب وسحبهم أو ضربهم بالرصاص.

فى بلجراد العاصمة البيضاء حاولت التعرف على هذه المشكلة عن قرب، وقد أعد المسئولون لى رحلة إلى هذا الإقليم «كوسوفا» لزيارته ومقابلة المسئولين فيه، لكن ظروف الطقس لم تسمح بالزيارة فقد كان سيئاً للغاية، ومع ذلك فقد قابلت فى مبنى وزارة الخارجية فى بلجراد السيد (نيازى ديستاريفتش) رئيس الشئون الخارجية فى البرلمان اليوغوسلافى، واستمرت المقابلة أكثر من ساعتين حول هذه المشكلة وبعض المشاكل الأخرى... وكانت مفاجأة لى أن أسمع الرجل يتحدث إلى باللغة العربية، بل وباللهجة المصرية، وقد عرفت بعد ذلك أنه كان يعمل فى مصر قنصلا لسفارة يوغوسلافيا فى عام ١٩٥٢.

كان السؤال الذى يفرض نفسه ويلح على هو ماذا عن يوغوسلافيا بعد تيتو؟ هل تستمر فى أمن وسلام أو هناك أحداث جديدة أو مشاكل معينة؟

منذ الستينات كان الرئيس تيتو يتخذ كل الخطوات للاستمرارية بعده، وبدأ بتأمين كل العوامل لاستمرارية الثورة، ومع أن رحيله كان شيئاً حزيناً لنا، لكن كل شىء كان واضحاً وانتقلنا بعده دون أيه مشكلة تتعلق برحيله.. والقيادات الموجودة الآن كان هو الذى اختارها بنفسه، بل والدستور الذى نعيش فى ظله الآن شارك هو فى وضعه عام ١٩٧٤.

وماذا عن مشكلة «كوسوفا» ولماذا ظهرت واضحة على السطح

بعد وفاة تيتو؟ مشكلة إقليم كوسوفا نشأت نتيجة أخطاء قادتها فى السنوات العشرة الأخيرة وكان الخطأ الرئيسى فى التخطيط غير السليم فلم تؤمن القيادات العمل للأجيال القادمة الجديدة، ولم تكيف النظام الدراسى مع حاجة المجتمع، فتكونت نتيجة لذلك الكوادر التى لا تجد العمل المناسب، والألبانيون لا يتعلمون إلا لغتهم وحسب وهى اللغة الألبانية، وعندما يصلون إلى سن العمل لا يستطيعون إيجاد عمل مناسب إلا فى إقليمهم فقط ومن هنا نشأت المشكلة، أما إذا استطاع أى مواطن ألبانى التحدث بلغة أخرى مع لغته الألبانية فإنه يتمكن من إيجاد عمل فى أى إقليم آخر، فيوغوسلافيا واسعة، لكنهم يفضلون التقوقع فى إقليمهم وفى نطاق لغتهم.

وكيف ظهرت المشكلة إذن فى السنوات الأخيرة؟

كان من الطبيعى أن تكون الجامعة هى مصدر الحوادث والشغب، وذلك لأن الطلبة لا يجدون أملا فى العمل بعد التخرج وينظرون لمستقبلهم فيجدونه غامضاً ضائعاً ومن هنا قامت بعض المظاهرات.

وما هو موقف الحكومة المركزية اليوغوسلافية؟ ألم تشارك قادة إقليم كوسوفا فى نفس الأخطاء؟

بالطبع أخطأت الحكومة المركزية فى عدم انتباهها إلى ما يحدث

فى منطقة كوسوفا فى السنوات الأخيرة فمنذ عام ١٩٤٨ اتجهت ألبانيا وهى الدولة المجاورة لنا والتى نرتبط معها بحدود واحدة، اتجهت إلى العداء مع يوغوسلافيا، إلعداء لسياستها الداخلية والخارجية، ودأبت ألبانيا على نشر رأيها المعارض والمعادى لنا سواء فى صحفها أم من إذاعتها، ولم نكن نرد عليها إلا نادراً، فقد كنا مهتمين باستقلال ألبانيا عن سياسة السوفيت ثم عن الصين منذ الستينات، والغريب أنها ركزت على مهاجمتنا وإذاعة أحاديث من إذاعتها إلى الألبان داخل يوغوسلافيا للتأثير عليهم وتشجيعهم على الاستقلال عن يوغوسلافيا.

وماذا يريد الألبان الذين يعيشون داخل يوغوسلافيا والذين يقومون من حين إلى آخر بمظاهرات وإحداث شغب؟

هدف المظاهرات هو البحث عن مستقبل مستقر للشباب وإيجاد العمل المناسب لهم بعد المشكلة التى خلقتها القيادة بعدم التخطيط السليم.. وهناك هدف آخر هو الاستجابة للإعلام الألبانى الصادر من ألبانيا، فألبانيا تريد أن يستقل إقليم كوسوفا بنفسه، وربما إنه على حدود دولة ألبانيا فيمكن بعد أن يحقق الاستقلال الانضمام إلى ألبانيا نفسها، ولكن هذا لن يحدث فلم يطالب الألبان اليوغوسلاف بالاستقلال أو بتكوين جمهورية، وهم يتمتعون بكل الحقوق والواجبات ولهم مدارسهم الخاصة وجامعتهم وصحفهم ومجلاتهم وإذاعتهم أيضا بل ومحاكمهم الخاصة بالإضافة

إلى لغتهم التى يتحدثون بها، ولهذا فهم يتمتعون بكل حقوق المواطنة من الدرجة الأولى، و(برشتينا) عاصمة كوسوفا تقدمت فى العشرين سنة الأخيرة أكثر من (تيرانا) عاصمة ألبانيا ومعدلات التنمية فيها وصلت لدرجة عالية.

وكيف تحل المشكلة إذن؟.

المشكلة تحل إذا تركت ألبانيا الألبانيين فى يوغوسلافيا فى حالهم ولم تتدخل فى شئونهم وكذلك بالتخطيط الديمغرافى والصناعى اللازم وإيجاد فرص العمل والحياة الكريمة اللائقة بالشباب الألبانى فى كوسوفا، كذلك بضبط التناسل فى الإقليم إذ أن نسبة أذدياد السكان فى إقليم كوسوفا هى أعلى نسبة زيادة فى أوربا وهذا يعقد المشكلة أكثر، ونحن لا نرى تحديد النسل ولا تطالب به إلا إذا كان نتيجة رغبة السكان أنفسهم، أما الحل فهو - كما قلت - بالتخطيط العلمى.

ولماذا لا تتفاهمون مع جارتكم ألبانيا فى هذه المشلكة؟

إقليم كوسوفا جزء من يوغوسلافيا ومشكلته هى مشكلة يوغوسلافية بحته، والحكومة الألبانية عندما تتحدث عن المشكلة فهى تتدخل - للأسف - فى شئون يوغوسلافيا الداخلية والخارجية، ونحن لا نسمح لأحد بذلك.

هذا هو رأى يوغوسلافيا فى المشكلة، وهو رأى وجيه بالطبع،

ولكن بحثاً عن الموضوعية يجب أن نعرف الرأى الآخر وهو رأى ألبانيا، فألبانيا تقول إنها لا تتدخل فى شئون يوغوسلافيا ولكن إقليم كوسوفا يعيش فيه مواطنون ألبان مائة فى المائة وهم يتحدثون باللغة الألبانية، ويرتبطون برباط الدم مع شعبهم، وعلى هذا فإن ألبانيا لا توافق على القبض على بعض الشباب من كوسوفا وسجنه بل وقتله لمجرد طلب الاستقلال وهذا حقهم.

ومشكلة كوسوفا هى صورة مصغرة للمشاكل الكثيرة الموجودة فى برميل البارود، وأقصد بلاد البلقان.

وسألنى السيد (ديستاريفتش) رئيس الشئون الخارجية فى البرلمان اليوغوسلافى فى نهاية حديثى معه عن أخبار مصر؟

قلت... مصر دائماً بخير والحمد لله، ونحن لا نستطيع أن ننسى علاقات الصداقة القوية بين بلادنا وبين يوغوسلافيا، كما أن الشعب المصرى يذكر بفخر الصداقة الشخصية التى كانت بين الزعيمين جمال عبد الناصر وتيتو، ومساعدة الرئيس تيتو لنا فى حرب أكتوبر المجيدة سنة ١٩٧٣ - حرب رمضان - فى أثناء عملية الثغرة.

وابتسم الرجل قائلا.. حقيقة إن الصداقة بيننا قوية متينة وإن تعرضت بعد اتفاقية (كامب ديفيد) للفتور إلا إننا وإن اختلفنا معكم فى عملية السلام مع إسرائيل لكننا نقدر الصداقة ونحترم

سيادتكم الخاصة ونبقى على الصداقة بالرغم من الاختلاف، وأمامنا عمل كبير موحد لدعم حركة عدم الانحياز واتخاذ اللازم لوقف عدوان إسرائيل واعتداءاتها المتكررة بين الحين والآخر والتى تهدد أمن وسلام الشرق الأوسط بل والعالم كله[1].

ملاحظة هامة:

هذه الرحلات كانت بين السنوات ١٩٧٨ و ١٩٨١ ومن الطبيعى أن تكون الحكايات خلال هذه السنوات ولاشك أن هناك تغيرات كبيرة حدثت بعد ذلك فى هذه الدول.. تغيرات سياسية وأيديولوچية وحتى فى الأسعار التى تقفز بين يوم وليلة.. وتبقى هذه الرحلات والحكايات وثيقة تاريخية هامة لهذه الدول.

---

(١) بعد زيارتى ليوغوسلافيا عام ١٩٨١ ومقابلتى لرئيس الشئون الخارجية فى البرلمان عادت علاقات الصداقة القوية بين مصر ويوغوسلافيا واستطاع الرئيس حسنى مبارك أن يجعلها كما كانت دائما، وزاد من قوتها تبادل زيارات الرؤساء والوفود للبلدين، وهذا تطور طبيعى بين بلدين صديقين وشعبين يؤمنان بعدم الانحياز.